



منهج الإصلاح عند محمد الهادي السنوسي، من خلال نماذج من شعره

The reform approach to Muhammad Al-Hadi Al-Senussi, through examples of his poetry

حورية مدّان*

جامعة يحيى فارس بالمدينة (الجزائر).

البريد الإلكتروني: meddaneh@gmail.com

تاريخ النشر
2022/04/16

تاريخ القبول
2022/04/05

تاريخ الإيداع
2022/02/28

الملخص: الهدف من هذه الورقة المعنونة: منهج الإصلاح عند محمد الهادي السنوسي الزاهري، من خلال نماذج من شعره، هو تسليط الضوء على شخصية فذة من شخصيات الجزائر ومفكريها الذين حملوا مسؤولية الإصلاح، والتوعية والتوجيه في فترة الاستعمار البغيض وسعوا جاهدين من أجل الإحياء الفكري والديني، والإصلاح الاجتماعي والتربوي. جاهدَ بقلمه، وفكره، بشعره ونثره، بعلمه وعمله حتى آخر عمره دون هوادة لتحيا الجزائر حرةً مستقلة في ظلّ الكرامة والسيادة. تعتمد هذه الدراسة تحليل نماذج شعرية لمحمد الهادي السنوسي للكشف عن ملامح المنهج الإصلاحية عنده، من خلال الموضوعات التي يعالجها، والأساليب التي يستخدمها والأبعاد الفكرية التي يتأسس عليها خطابه.

الكلمات المفتاحية: محمد الهادي السنوسي؛ الاستعمار؛ الحركة الإصلاحية؛ الشعر؛ المنهج.

Abstract: The aim of this paper entitled: The Reform Approach of Muhammad Al-Hadi Al-Senussi Al-Zahiri, through examples of his poetry, is to shed light on an outstanding personality of Algeria's personalities and thinkers who took responsibility for reform, awareness and guidance during the hateful colonial period and strived for Intellectual and religious revival, and social and educational reform. He struggled with his pen, his thought, his poetry, his knowledge and his work without relentlessness so that Algeria might live free and independent in the shade of dignity and sovereignty. This study relies on the analysis of poetic models of Muhammad Al-Hadi Al-Senussi to reveal the features of his reformist approach, through the topics he deals with, and the methods he uses in delivering his reformist discourse.

Keywords: Muhammad Al-Hadi Al-Senussi ; colonialism ; reform movement ; poetry ; method

* المؤلف المرسل

مقدّمة:

مرّت الجزائر بمرحلة عصيبة خلال الفترة الاستعمارية البغيضة، عانت أثناءها من ويلات الحرب والتقتيل، وتجرّعت مرارة الظلم والاضطهاد، وواجهت أعتى أنواع التعذيب والقهر. ومن شراسة الاحتلال الفرنسي ووحشيته أنه إنتهج سياسة الفرنسة والتتصير مستهدفاً القضاء على الشخصية الجزائرية بمحاربة ثوابتها من دين ولغة وتاريخ، وسعى لطمس هويتها وهدم حضارتها.

فحلّت الأزمات جرّاء ذلك، وتفاقت الآفات من جهل، وفقر، وبطالة، وانتشرت البدع والخرافات، الأمر الذي دفع برواد الحركة الإصلاحية في الجزائر، إلى التصدّي للغزو الفكري والثقافي، والقضاء على السموم الاستدمارية المبتوثة في أوصال الأمة الجزائرية. وها هو الشاعر أحمد بن الحاج يصوّر مشاكل المجتمع الجزائري في تلك الفترة بهذه الأبيات قائلاً:

عجياً هلاًّ تصدّيتم لمحـ	ق جذور المارقين السفهاء
وعلمتم بالذي تتلـونه	في كتاب الله صباحا ومساء
فالزنى فاش، وخمر رائجة	وقمار في جهار وخفاء
وشباب ضائع يأوي إلى	موضع اللهو، إلى دور البغاء
وأيامي ضائعات، أمرهـ	نّ بلاء فقر، وجوع وعراء
نكبات وبلايا جمّة	ورزايا تدع الطود هباء
كلّ قلب مؤمن في حسرة	أسف يقطر حزنا بالدماء

(ابن الحاج يحيى، 1937، ص3)

فبرز من عمق المعاناة الخطاب الإصلاحي على أيدي مفكرين وعلماء جزائريين، انبروا لتوعية المجتمع وتحسيسه بما يُحاك ضدّه من مكائد وفسائس، وتنبئيه إلى ما علق بمعتقداته الدينية من بدع وخرافات، وما شابّه ممارساته الدنيوية من آفات وانحرافات.

1. الحركة الإصلاحية ودواعي نشاطها:

ظهرت الحركة الإصلاحية في الجزائر نتيجة الظروف السابقة، قصد تحقيق النهضة الشاملة عن طريق إصلاح الأوضاع وخاصة منها ما تعلّق بالمجال الديني، إذ استهدف مفكرو النهضة العودة إلى أصول الدين الإسلامي، من قرآن وسنة، واسترشاد بالهدي النبوي الشريف والصحابة الأخيار، للقضاء على البدع والخرافات التي أوجدتها بعض المؤسسات الطرقية المقدّسة للعادات المتوارثة، دون مرجعية دينية صحيحة، إلى جانب التصديّ للسلطات الاستعمارية بغية الكشف عن أليبيها، ودسائسها، وسمومها التي ما فتئت تبثها بين فئات المجتمع لإبعاده عن مقومات هويته وثوابتها.

وكان للحركة الإصلاحية دورها الكبير في النهوض بالأمة الجزائرية بتسيير من مفكرين أدركوا أنّ الإحياء الفكري والثقافي والحضاري في إطار الحركة الإصلاحية، لا يقلّ أهميّة وحتمية عن المقاومة المسلحة. وشكّل خريجو معاهد المشرق العربي الإسلامي معظم هؤلاء العلماء، من أمثال الشيخ الإبراهيمي، والأمين العمودي، والشيخ مبارك الميلي، والشيخ بيوض، وغيرهم. ولم يقتصر نشاط الحركة الإصلاحية على مجال حيوي معيّن، بل كانت حركة إصلاحية اجتماعية دينية، سياسية، فكرية وثقافية، من تخطيط فكر إسلامي علمي واع، لإحداث التغيير والانتقال من واقع مريع إلى مرحلة الوعي والإحياء الفكري. علماً أنّ «كثيراً من المتقنين الجزائريين كانوا مصلحين أيضاً، رغم أنّهم كانوا متأثرين بالحضارة الفرنسية من جهة، وبتيّار الجامعة الإسلامية من جهة أخرى» (سعد الله، 1988، ص 89).

وقد آل علماء الإصلاح الجزائريون على أنفسهم أن يصلحوا شباب الأمة بتتوير عقولهم وتحريك مشاعرهم، وشحذ همهم لليقظة والاجتهاد. كما نالت المرأة الجزائرية حظها من اهتمام العلماء الجزائريين المصلحين، فدعوا إلى تعليمها وتهذيبها وتثقيفها،

وتوعيتها بشؤون الدين، وإعدادها لشؤون الحياة إعداداً سليماً قائماً على الوعي بالحقوق والواجبات معاً.

وتكاثفت جهود رجال الإصلاح قصد معالجة الآفات الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع آنذاك، من جهل وفقر وبطالة ولهو، ناهيك عن تفشي الموبقات من مثل الخمر والقمار والزنا. فعلاً الخطاب الإصلاحى داعياً إلى التربية والتعليم، وارتفع صوت المصلح الاجتماعى بالوعظ والإرشاد، بغية الإحياء الدينى والأخلاقى. وألقيت المحاضرات والدروس تنبيهاً لضرورة التمسك بالفضائل، والتحلّي بمحاسن الأخلاق والسلوكات القويمة.

2. أهداف ووسائل الحركة الإصلاحية:

شكلت الحركة الإصلاحية رد فعل قوي من قبل النخبة الجزائرية المثقفة، تجاه محاولات التنصير والتغريب التي انتهجها المستعمر الغاشم حتى تحول دون تحقيقه لغايته من محو الهوية الوطنية، وإبعاد المجتمع عن تعاليم دينه السمحة. وفي كلمة الشيخ ابن باديس الآتية تلخيص لأهداف الحركة الإصلاحية عامة، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خاصة، إذ يقول: «إنّ غاية الجمعية هي إصلاح الفاسد وتقويم المعوج وإرشاد الضال وإصلاح شؤون أهل العلم» (ابن باديس، 1936، ص2). ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي أنّ الجمعية قد أسست لغايتين شريفتين هما: إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية (بو الصمصاف، 2009، ص96).

وكتب الشيخ ابن باديس في جريدة البصائر يقول: «العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه هي أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ أن كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة وتثيرنا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة» (ابن باديس، 1937، ص2).

وقد سعى رجال الإصلاح إلى إيصال خطابهم باعتماد مجموعة من الوسائل، نذكر منها: المقالات الصحفية، والكتابات إلى الأئمة والعلماء، لتوسيع نطاق التوعية، وفي هذا الإطار أنشأ الشيخ ابن باديس جريدة المنتقد، الصادرة سنة 1925م، بقسنطينة، ونشر منها ثمانية عشر (18) عددا ضمت نقدا شديدا للسلطات الفرنسية، ورجال الطرق الصوفية، إلى جانب العديد من الخطابات الإصلاحية. وبعد تلك الأعداد، تم إغلاقها من قبل الإدارة الاستعمارية (عمامرة، 2001، ص142). بينما استمرت جريدته الشهاب التي تأسست أيضا سنة 1925م، إلى أن توقفت تلقائيا سنة 1939م، لاتباعها سياسة المرونة في الخطاب حتى تتفادى تدخل الإدارة الاستعمارية في توقيفها. إلى جانب جريدة السنة النبوية (1933م)، وجريدة البصائر التي أسستها الجمعية سنة 1935م، وجرائد عديدة، حرصت على نشر الأفكار الإصلاحية، بالوعظ والإرشاد، وحاربت الطرق الصوفية، والاستعمار بتوعية المجتمع، وتنبيهه إلى ما يُحاك ضده من مكائد.

وكان للمساجد أهميتها الكبيرة في نشر الأفكار الإصلاحية، وتوسيع نطاق الوعظ والإرشاد، باعتبارها مقصد مختلف الفئات الاجتماعية للصلاة، والعبادة، والاستماع للدروس العلمية في إطار ما يُدعى بالتعليم المسجدي، على أيدي قادة الجمعية (بو الصفصاف، 2009، ص135-136).

كما سعت الجمعية لبناء المدارس لتعليم العلوم اللغوية والدينية، من نحو وصرف وبلاغة وفقه وغيرها، فكانت مثلا، مدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر، ومدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدرسة تهذيب البنين بتبسة (بو الصفصاف، 2009، ص138-140). وأسست الجمعية المعاهد من مثل دار الحديث بتلمسان، وكذلك النوادي لاستقطاب الشباب حيث يُقدّم لهم الوعظ والتوجيه في جوّ يحترم مرحلتهم العمرية، إذ توفر لهم فرص لممارسة الرياضة، وتلتحق بهم فرق المسرح الهاوي، فهي «وسط بين المدرسة وبين الجامع لأنّ هناك طائفة عظيمة من شباب الأمة لا تجد الجمعية وسيلة لتبليغهم دعوة

الدين والعلم إلا في تلك النوادي» (الإبراهيمي، 1947، ص3). ونذكر للتمثيل نادي الترقى الذي تأسس سنة 1927م بالجزائر.

وكانت مثل هذه المؤسسات التعليمية بمثابة ردة الفعل على المدارس الاستعمارية التي تحارب اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي، إذ عمل رجال الإصلاح على تكوين الأجيال تكويناً قائماً على الاعتزاز بالهوية الجزائرية، والتمسك بثوابت الشخصية الأصيلة من لغة ودين وتاريخ وانتماء إلى الأرض ورفض التغريب.

ولمّا كان الشعر من وسائل الخطاب الإصلاحية في خدمة قضايا الأمة، ارتأينا أن نقف عنده ندرج وقفة عند الشعر الجزائري الناهض، قبل التعريف بأحد رجالاته الذين خاضوا نضال الإصلاح من خلال نصوصهم الشعرية، في زمن كان على الكلمة ألف رقيب.

3. الشعر الجزائري في بداية نهضته:

ارتبط الشعر الجزائري الحديث ببداية الحركة الإصلاحية، فعلى الواقع الذي انطلقت منه، تأسس، وبالذواعي التي أظهرتها، نشأ وتبلور مسيرا الأحداث، متفاعلاً مع الوقائع، مجسداً المعطيات الاجتماعية والفكرية، معالجا القضايا التي تعنّ في تلك المرحلة التاريخية العصبية الأمر الذي ينقله محمد ناصر بقوله: «إن الظروف السياسية والثقافية، والاجتماعية، التي أحاطت بالشاعر الجزائري، تضافرت كلها على توجيه الحركة الشعرية إلى أن تتغلب عليه نزعة المحافظة والتقليد» (محمد ناصر، 1985، ص39). ولا عجب في هذا، إذا علمنا أنّ مرحلة الإصلاح اتسمت بالإحياء الديني، والفكري واللغوي بما يوافق التعاليم الإسلامية الصحيحة، فوجد التعليم المسجدي، وفتحت الكتابات القرآنية، وترأس الحركة الإصلاحية علماء في الفقه واللغة.

ومن ثمّ سادت القناعة بأنّه: «لا يمكن للغة العربية أن ترقى في السنة أبنائها ما لم تستمد رقيها من روائع فحول الأدب العربي القديم، من أمثال عبد الحميد الكاتب، وابن العميد، والجاحظ، والحريري، والبحثري، وأبي تمام، والمتنبي...». (الهادي السنوسي،

2007، ص128). من هنا، كان شعراء الجزائر في العشرينيات والثلاثينيات من دعاة المحافظة والإحياء، وعن توجّهاتهم يقول محمد ناصر بأن: «الشعراء الجزائريين والإصلاحيين منهم بصفة خاصة، كانوا يعيشون فترة إحياء حقيقية، ممّا جعلهم يُصدرون في نظرهم إلى الشعر، وماهيته، عن نظرة تحاول إحياء تراث الأدب العربي إحياء كاملاً» (محمد ناصر، 1985، ص66). وضمن هذا التيار المحافظ، ساد طابع الالتزام بقضايا الأمة في إطار توجيهي إرشادي، يستهدف الإصلاح التربوي والاجتماعي بما يوافق الدين الصحيح، وهدى السلف الصالح. ويمثل هذا التيار الشعري الناهض كلّ من رمضان حمّود، ومحمّد الهادي السنوسي الزاهري، ومحمد العيد آل خليفة، ومفدي زكريا، وغيرهم.

4. نبذة عن حياة محمد الهادي السنوسي:

هو مصلح ملتزم بقضايا المجتمع على تنوّعها، مربّ غيور على أبناء وطنه، شاعر ملتزم بأحداث البلاد والعباد، أديب مرهف الحسّ، رقيق المشاعر، من جيل النّهضة الذي عاش الاحتلال، وعانى من ويلاته، وذاق مرارة الظلم، وشهد محاولات التخريب، فانبصرى يناضل بالكلمة، من على منبر الخطيب، ومنصّة الشاعر، ومكتب المدرّس، وبقلم الكاتب، يردّ على الغزو الفكري بوعي، داعيا إلى الإحياء الديني، والإصلاح الاجتماعي في إطار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبمعيّة أعلام الإصلاح وعلى رأسهم شيخه عبد الحميد بن باديس.

يذكر محمد السنوسي الزاهري أبرز ملاح حياته في كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)، يقول: "أنا محمد الهادي بن علي بن محمد بن العابد بن محمد بن السنوسي الزاهري، نسبة إلى جدّنا الأكبر (أبي زاهر) الحسني، نسبة إلى الحسن السبط رضي الله عنه... ولدت (بليانة) قرية من قرى الزاب الشرقي قبلة بسكرة النخيل بحارة

آل السنوسي، في ربيع الأول سنة 1320هـ (1902)... (الهادي السنوسي، 2007، ص184).

نشأ في أسرة شريفة محافظة، معروفة بالعلم والأدب، أدخله أبوه الكتاب القرآني باكراً، لكن مرضه حال دون استمراره فيه، فأشرف بنفسه على تربيته بمعونة جدته وجدّه لأمه اللذين يقول فيهما: «قضيت أيام صباي في حجرهما، غير مكلف شيئاً من متاعب الحياة الدنيا». ولما كان والده علي بن محمد محباً للعلم والعلماء، حافظاً للقرآن الكريم، ولوعاً بتفسيره، وله علم بالنحو والصرف والفقه، سهر على تحفيظه القرآن الكريم وتلقيه أوائل المعارف الدينية واللغوية (الهادي السنوسي، 2007، ص184).

وعن التحاقه بدروس الإمام عبد الحميد بن باديس، يقول: «بعد أن أتممت القرآن، رأى والدي أنه لابدّ من إرساله في طلب العلم، ولحسن الحظ، وافى غرضه هذا قدوم الأستاذ الكبير العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس لبلدنا، فاجتمع به أعيان البلد وعرضوا عليه إرسال فريق من أبنائها إلى مدرسته، فقبل ذلك مغتبطاً» (الهادي السنوسي، 2007، ص184). وفعلاً، ارتحل محمد السنوسي إلى قسنطينة وهو ابن الخامسة عشرة من عمره، ليلتحق بدروس الإمام عبد الحميد بن باديس. فلازمه حوالي سبع سنوات، أخذ عنه اللغة وقواعدها، والإنشاء، والفقه، وتدرّب على نظم الشعر، وإلقاءه، كما ذكر في ترجمته الذاتية في كتابه المذكور سابقاً.

وكان لدروس الشيخ ابن باديس الأثر الطيب في توجيه محمد الهادي السنوسي الوجهة الصائبة في تمثّل الدين الإسلامي الصحيح، وفق أصول القرآن والسنة وهدى السلف الصالح، وهو يقول في الموضوع: «كنت قبل صُحبتني لهذا الأستاذ الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين، راسخ اليقين في الإيمان بطواغيت الدجالين، ولقد أصبحت، والحمد لله، حرّاً الضمير والعقيدة والفكر، راسخ اليقين في أن الإسلام هو ما

جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا التصوّف وما يدّعيه الصوفيون أو المتصوّفون» (الهادي السنوسي، 2007، ص186).

رغب الزاهري في السفر إلى مصر طلباً لمزيد من العلم، فاستقلّ القطار إلى سكيكدة سنة 1923 لينطلق منها بحراً، إلى مصر، لكنّ ألقى عليه القبض ومُنِع من السفر.

بدأ الهادي السنوسي نشاطه الإصلاحي، في مدينة بسكرة، أوائل العقد الثالث من القرن العشرين، ضمن الحركة الإصلاحية التي كان يقودها الشيخ الطيب العقبي. كما نشط في مجال العمل الثقافي ممثلاً لهيئة الشبيبة الجزائرية في مدينة قسنطينة سنة 1925، وتجوّل في أنحاء الجزائر داعياً لأفكارها، وممثلاً لجريدتي «المنتقد والشهاب»، اللتين عمل محرراً في كليهما.

كما عمل بالتعليم الحرّ في الجزائر العاصمة، وبلعباس وتلمسان، وغيرها من المدن، ثم أوفدته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى باريس مرشداً وواعظاً للمغتربين. وبعد عودته إلى الجزائر استمرّ في عمله الإصلاحي، إضافة إلى عمله في التدريس، ثم شارك في بعض البرامج الإذاعية في إطار الإرشاد والتوجيه.

ومع استقلال الجزائر اشتغل محمد الهادي السنوسي مدرساً في التعليم الثانوي، إلى أن أُحيل إلى التقاعد أوائل 1971.

تتوّعت كتاباته بين النثر والشعر، فكانت له مقالات ودراسات عديدة أوردها الجرائد والمجلات من مثل جريدة الشهاب، ومجلة هنا الجزائر، يعالج فيها قضايا الأمة الاجتماعية والدينية والفكرية، بل ويكشف عن زيف الاستعمار البغيض، ومن ذلك قوله: « والاستعمار سمّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإنشاء الأمية، والبيان العربي لهذه البلبلة، التي لا

يستقيم معها تعبير ولا تفكير» (خرفي، 1984، ص40) إلى جانب كتابه الشهير الذي احتفى بظهوره المثقفون (شعراء الجزائر في العصر الحاضر) والذي جمع فيه تراجم لمجموعة كبيرة من شعراء النهضة في الجزائر، مع نماذج شعرية له ولمعاصريه. وهو مرجع قيّم من مراجع الشعر الجزائري الحديث الذي لا يزال الباحثون يحتفون به.

أمّا إنتاجه الشعري، فتمثّل في قصائد كثيرة نشرها في الصحف والمجلات، من مثل جريدة الشهاب، ومجلة الشباب، أو أوردتها كتابه السابق، ملتزماً في شعره بقضايا الأمة وهموم البلاد، داعياً بصوت الواعظ إلى الأخلاق والتربية، منبّهاً بفكر المصلح إلى ضرورة الجمع بين العلم والعمل.

أصيب السنوسي بشلل نصفي، جعله حبيس المنزل لمدة أربع سنوات، إلى أن وافاه أجله ليلة الجمعة الثاني عشر من رمضان عام 1393هـ، الموافق للربيع من أكتوبر 1974م، وكان دفنه بمقبرة القبة بالعاصمة... عليه رحمة الله.

5. المنهج الإصلاحية لـ" محمد الهادي السنوسي الزاهري" من خلال نماذج شعرية له:

توطئة:

أمّن محمد الهادي السنوسي الزاهري برسالة الشاعر، ووظيفيته في خدمة القضايا الإنسانية ولهذا أولى الشعر أهميّة كبيرة لاعتقاده بفعاليتها في إطار الحركة الإصلاحية. يقول عن الشاعر في مقدّمة كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر): «إنّه ذلك الفذّ القادر الذي أوقف نفسه على بني جلدته، أو بني الإنسان جميعاً، يجاهد بفكره رسولا ذا رسالة سامية سبيله ليهدي الضال، ويعلم الجاهل، ويضرب لأبناء البشر المثل العالية في السعادة، وكمال الإنسان» (الهادي السنوسي، 200، ص10).

وهو يقول عن بداية نظمه: «بدأت أنظم الشعر باقتراحات يقترحها الأستاذ - الشيخ بن باديس - على بعض التلامذة، فيعطينا القصيدة والبيت والبيتين ويفرض جائزة للمجيد في التخمين أو التشطير، كنت أجهد نفسي في ذلك، حتى تحصلت على شبه ملكة شعرية،

فأخذت أنظم القصيدة، حتى إذا ختم الأستاذ درس التفسير ألقبها على المحفل الحاشد، الأمر الذي زرع في نفسي نشاطا بما كنت أراه من استحسان الجمهور لما ألقبه». [. \(https://www.djazairress.com/elmassa/48453#\)](https://www.djazairress.com/elmassa/48453#)

وقد كان محمد الهادي السنوسي يوقع قصائده بلقب "شاعر المنتقد". نظم محمد الهادي السنوسي مجموعة من القصائد ضمنها كتابه (شعراء الجزائر في العصر الحاضر).

1.5. شعره في الإحياء الديني:

التزم محمد الهادي السنوسي بالدعوة إلى التمسك بالدين الإسلامي الصحيح، فنظم قصائد كثيرة في موضوع العبادات وفضائل الأخلاق، والعديد من القضايا الإسلامية، مدح النبي، وهاجم أعداء الدين وكشف دسائسهم، كما نظم في الشعائر من صوم وحج في مناسباتها.

مدافعا دائما عن الإسلام، لأنه سبيل الأمة نحو الصلاح والسيادة. وهو يقر بأن قوة الأمة في إسلامها، وأن العدو يخشاها لقوة الجانب الروحي لديها، وهذا ما يتجلى في قوله في قصيدة (تحية رمضان) (غنام، 2007، ص394):

نحن في هذه الجزائر بالإسلام سُدنا، لا بالفضول المعيب
وبه استصعب المغيرون فينا قوة الروح في مجال الحروب
فإذا كبر المكبر منا أرجفنا قوة العدو الكذوب

وتتجلى في هذه الأبيات، عاطفة الشاعر المفعمة بالفخر والاعتزاز، كونه ينتمي إلى بلاد مسلمة، انتماء تجسده الـ (نحن) التي يستخدمها في مستهل خطابه، ويستغرق الأبيات ضميرا متصلا (سدنا، فينا، منا، أرجفنا)، فلا وجود للفرد منعزلا، بالإسلام، هو كثير، وقوته روحية لا يقوى عليها العدو الذي ترعبه (الله أكبر).

وفي رحاب الشهر العظيم أيضا نظم محمد الهادي السنوسي قصيدته الموسومة بـ (من إلهام رمضان) (الهادي السنوسي، 1952، ص2)، والتي يقول فيها:

شهر الهدى بالخير آبا باليمن قد ملأ الرحابا
يحدو به الروح الأميـ ن، لمن يصومون احتسابا
شهر الرسالات التي زفّت إلى طه كتابا..
فالجوّ فرحٌ وترحيب بقدم شهر الصوم والمغفرة، وتعظيم لهذا الشهر ندركه من خلال
المعجم المفرداتي الذي يستعمله الشاعر (شهر الهدى، الخير، اليمن، الرحاب، شهر
الرسالات، زفت..).

والصوم ليس سهلا، ولكنّ الله يحفظ المؤمن، ويمدّه بالقوّة لتجاوز الصعوبات:

صمناه والحر الشديد— د يكاد يلتهب التهابا
والريق في أفواهنا من وقعه قد صار صابا
لا الجوع أثر إذ يلح ح وخاب في الإلحاح خابا
ألطف مولانا لنا حُرز تقينا أن نصابا...

فالأبيات ذات طابع ديني جليّ، يجمع بين سموّ النفس المؤمنة، المحبّة لتعاليم الشريعة،
المتمسّكة بها رغم الصعوبات، خاصة منها (الحرّ، الجوع، المغريات..) وبين الخوف من
عقاب الله عند المعصية، إلى جانب الدعوة إلى هدي الرسول والسلف الصالح واضحة.

اذكر من السلف الكرا م الغر أمجادا صحابا
والحرب حامية الوطيا— س تدق بالموت الرقابا
صاموا لربّهم وما صقلوا الأسنة والحرابا
لا يؤثرون على المعـ لي في الدنا العيش الكذابا
عرفوا الحياة تنافسا في الخلد فاستبقوا الرغابا
طابوا نفوسا بالرسـ ول لأنه باللّه طابا
فإذا دعاهم دعوة كلّ لدعوته استجابا

والملاحظ أنّ الألفاظ معهودة لدى عامّ الناس: (الروح الأمين، احتساب، ربهم، طه، الخلد، الرسول، الله، دعوة...)، الأمر الذي يجعل فهم الخطاب ميسراً. والتراكيب موجزة، مباشرة، مفعمة بالعاطفة الدينية الصادقة ممّا ينتج عنه مقبولية الخطاب الإصلاحية. فالشاعر شديد الغيرة على الإسلام، وتعاليمه السمحة، ولهذا يحرص على كشف ألعيب كل من سوّلت له نفسه الإساءة إلى الجانب العقدي، من أمثال بعض الطرق الصوفية التي عملت على نشر البدع والخرافات لتثويبه الدين الصحيح وإبعاد الشعب عن ثوابته، بإيعاز من السلطات الاستعمارية، وخدمة لمصالحهم الشخصية. ومن ذلك قوله (غنام، 2007، ص377):

أردنا لهم أي الكتاب شريعة فهاج طغام، لا تروق لهم كتب
وأوردهم ورد الخرافات غيلة لأفكارهم، كي يسهل الدجل والسلب

فضمير الغائبين (هم) هو المشير إلى صنف من الناس معروف بالدناءة والرذيلة (طغام) صنف يرفض كتاب الله، بل ولا يعجبه أيّ كتاب، ويلجأ إلى سبيل الخرافات طلباً للسلب والنهب. وفي هذا التوصيف نقد لاذع من الشاعر لهؤلاء الصوفيين الذين يقول عنهم أيضاً:

وكنّا ظنناهم هداة، فأسفرت تجارينا عنهم، فأهداهم ذئب
لقد أرهقوا عزمنا وعقولنا وهذا، وإن طال المطال، لهم دأب
يجدّون في قتل العباد، وإن هموا دعوا أن يجدوا في حياتهم، يأبوا

فظاهر هؤلاء الرجال أنهم هداة، وظيفتهم الوعظ والإرشاد، ولكنّ الواقع أثبت أنّ أكثرهم هدى، ذئب مخادع مكر. وقد دأبوا على إرهابنا، وتفتيت عزائمنا، ومن صفاتهم أنهم يبتغون قتل العباد، ويأنفون من الجدّ والعمل السويّ. ومن المؤسف، أنّهم يخادعون الناس بمظاهرهم الخادعة، إذ:

ينال ابن أوى عندهم كلّ حُظوة وللمصلح الهادي الشتائم والسبّ

الأمر الذي يدلّ على مكرهم الشديد، وإتقانهم الخداع، في حين لا ينال المصلح الذي يبتغي فعلا خدمة الأمة، إلا السبّ والشتائم.

وفي هذه الأبيات تبدو عاطفة الشاعر حانقة على هؤلاء الطرقيين، يشوبها الغضب وتتوزعها مشاعر الرفض والرغبة في التغيير والكشف عن زيف الأمور وتوضيح الحقائق. ومنطلق تلك الثورة العارمة حبّ الشاعر للدين الإسلامي ورغبته في الإحياء العقدي السليم.

2.5. شعره في إحياء اللغة العربية:

حرص محمد الهادي السنوسي على الإشادة بمكانة اللغة العربية، ومكانتها في الجزائر باعتبارها اللغة الأصلية للبلاد، وهي من مقومات الشخصية ، ومن ثوابت الأمة. وها هو يقول في قصيدة موسومة بـ (موطني بالضاد عزّت أرضه) (غنام، 2007، ص382):

لغة الشعب هي الأصل، منْ لم يصنّها، لم يكنْ ذا نسب

وهي في الأحساب من أشرفها لم يكنْ من عقـّها ذا حسب

لغة الشعب هي الرأس فإنْ هي زالت، لم يعشْ بالذنب

فالعربية أصيلة مطلوب صيانتها، شريفة واجب الدفاع عنها، هي بمثابة الرأس ، وسائر اللغات بمثابة الذنب. فلا حياة بدون الرأس. وهي صورة مجسّدة لمعنى مجرد يتمثل في أهميّة العربية ومكانتها المرموقة، باعتبارها لغة القرآن الكريم. وفي الأبيات تركيب إضافي مكرّر (لغة الشعب) تعبيراً عن ارتباط الشعب الجزائري بلغته، فلا فاصل بينهما، هي لغته، وهو شعبها، فلا مجال للتخلي عنها لأنها مقوم حيوي لهويته.

كلّ شعبٍ حاد عن منطقهِ عاش في ركن هوان خرب

وقضى مستعمراً في عقله بعدوّ فيهِ لم ينسحب

والتعميم الوارد في قوله (كلّ شعب) يثبت حقيقة لا مجال للشك فيها، فلا شعب على الإطلاق، يتخلى عن لغته إلا أصابه الذلّ والهوان، والأدهى والأمرّ أنّ الاستعمار لن يبرح عقله، وسيبقى مسيطراً على تفكيره. وفي هذا القول لفظة عميقة من الشاعر إلى أنّ الغزو الفكري أخطر بكثير من الغزو العسكري، فإن كان هذا الأخير يزول بخروج العدو من الأرض، فإنّ الأوّل لن ينتهي ما دام الشعب متخلياً عن لغته، مستلب الفكر بلغة أخرى، وحينها يكون الاستعمار كامناً فيه، وهو الأخطر.

والملاحظ أنّ الألفاظ سهلة مُيسّرة، والتراكيب قصيرة واضحة المعاني، لا يمكن أن تستعصي على المتلقي. وهي سمة الخطاب الإصلاحية الذي يسعى إلى بلوغ أكبر قدر ممكن من نطاق التلقي.

3.5. شعره في الإحياء الفكري والتحصيل العلمي :

أدرك محمد الهادي السنوسي أنّ صلاح الأمة يتأتى بالتمسك بالثوابت، وتحصيل العلم، فسعى في أكثر من مناسبة إلى حثّ المتلقي على طلب المعرفة، ونبذ الجهل، ومن ذلك قوله (غنام، 2007، ص433):

العلم، يا قومي فإنّ سبيله للمهتدي أهدى لكلّ رشاد

فالعلم أصبح درسه في أمة تبغي النهوض، ضرورة المعتاد

وفي هذا القول صوت محبّب للعلم، منبّه لفائدته، لافقت الذهن لضرورته، لا بدّ منه للراغب في النهوض. والشاعر، كما عهدناه، لا يتخیر من معجمه اللفظي إلا ما يسهل فهمه، ويؤدّي مقصده بوضوح ومباشرة. لا صعوبة ولا تعقيد، أفراداً وتركيباً.

إنّ الذي سلب العزيز عزيزه جهلّ أضلّ بفكره الوقاد

ورمى البلاد بأسهم مسمومة في المدّعين تخاذل الأفراد

وكأنّ الشاعر يجلي أهميّة العلم بخطورة الجهل، فهو يضيّع العزيز، وقد يكون وطناً، ويضللّ فكراً، ويصيب بلاداً بأسهم مسمومة، ويجعل أهلها يتخاذلون عن نصرتها.

يا قوم، عصركم أقرّ بما له من مدفع دار ومن منطاد
اغدو على تلك السبيل، فإنّها والله لا يشقى عليها الغادي

وهو في هذه الأبيات يشيد ببعض نواتج العلم، من مثل المدفع والمنطاد، ويدعو إلى انتهاج سبيله إذ لا شقاء على نهجه. وفي ذلك دعوة من محمد الهادي السنوسي إلى التعليم ومحاربة الجهل، حتى تنهض الأمة.

وقد خصّ محمد الهادي السنوسي المرأة الجزائرية بقصائد يدعو فيها إلى استكمالها تعليمها، حتى تصلح ويصلح بها المجتمع، ومن ذلك قوله في قصيدة "الفتاة الجزائرية":

أخذتُ تمّدتُ إلى النهوض الجيدا لمّا رأّت أنّ علم الأخ معقودا
ومضتُ تجددُ للبنات مودّة نحو البنين الطالبين صعودا

وهي دعوة صريحة للمساواة بين الرجل والمرأة في طلب العلم، طلبا للرفقّ والصلاح.

أنا بنات الشعب في أميّة ملأتُ رؤوس الناشئات خمودا
ناشدتكم بالله والرحم التي في الكتب مجدّ ذكرها تمجيديا

فالشاعر واع بخطورة جهل الفتاة، وهو يسعى إلى توعية الأمة بهذه الخطورة، فالجهل يقهقر المرأة، نحو التخلف. ودعوته هاته نابغة من صوت المصلح المحبّ للشعب، الحريص على وعظه وإرشاده بلين وتبصير، حتى أنّه يناشد الأمة بالله والرحم، وهي قمة الإخلاص والتفاني في حبّ الخير وتعميمه.

ولم ينس محمد الهادي السنوسي تربية النشء، ولم تشغله كبريات الأحداث عن الالتفات إلى الأجيال الصاعدة وخصّها بمحفوظات تعليمية راقية المعنى، سهلة اللفظ، تتاسب المراحل العمرية الأولى، في إطار منهجه الإصلاحية الذي لا يجيد عنه. من ذلك محفوظة "مدرستي" (غنام، 2007، ص394) التي لا يزال يتغنّى بها الكبار، صغار الأمس، قبل صغار اليوم دون أن ينسبوها إلى مؤلّفها، جهلا وليس إححافا:

مدرستي مدرستي

أحبّها لأنها قد علّمتني لغتي

وعلّمتني الأدبا وحسّنت لي سيرتي

مدرستي مدرستي

أستاذها مثل أبي أطفالها كإخوتي

مدرستي في موطني وأهلها من أمّتي

أحفظها لأنها قد حققت لي أمنيتي

وصوت المعلم المحنّك، واضح في هذه الأبيات، ينضمّ إليه صوت المصلح المرَبّي الذي يراعي المستوى الذهني للنشء، في اختيار الألفاظ السهلة والتعبير القصيرة، والمعجم المألوف، ومع الحرص على تمرير الرسائل الخلقية الفاضلة، من مثل حبّ الأسرة، والإخاء، والمحافظة على اللغة، ومفهوم الوطن وغيرها.

وله في المعهد أيضا قصيدة جميلة، ذات دلالات وطنية وثقافية واجتماعية، مع إيقاع موسيقي عذب يجعلها ميسّرة للحفظ والترديد. يقول في مستهلّها (غنام، 2007، ص123):

يا معهدي يا معهدي بلغتُ فيك مقصدي

عرفت فيك لغتي ووطني وأمّتي

علّمتنا أطفالا لنغتدي رجالا.

وهكذا، تتضح لنا ملامح المنهج الإصلاحية لدى محمد الهادي السنوسي، فهو متمسّك بثوابت الأمة التي لا تنازل عنها، ويسعى لتحقيقها بالوسائل التي تخدمها، مع تعميم دعوته على جميع فئات المجتمع.

4.5. شعره في حبّ الوطن:

من دعائم الخطاب الإصلاحية التي لا يمكن الاستهانة بها نجد: حبّ الوطن، فالانتماء إلى الأرض، والشعب، والبلاد عموماً، يجعل المصلح مخلص الدعوة، مثابراً، مستعداً للتضحية من أجل تحقيق دعوته مبتغاهاً. ويجعل مثلي الدعوة ينصت، بقلبه وعقله، ويحرص على الفهم والاستجابة لما يُدعى إليه، مؤمناً بأنّ خدمة الوطن هو واجب مقدّس، فيقدّمه لفضله على مصلحته الخاصة. ومما قاله محمد الهادي السنوسي في حبّ الوطن نذكر قصيدته (هي الجنّة الفيحاء) (غنام، 2007، ص373):

وليس لنا إلا الجزائر موطن ترابك فيها واحدٌ وترابي

فإلى جانب شعور الانتماء، هناك شعور بالوحدة والتلاحم الذي يجعل الأمة بمثابة الفرد، خاصة وقد عبّر عن الأرض بالتراب، وهو ذو قابلية للتمازج والاختلاط، فلا حدّ إذن، بين ترابك وترابي، ولا يمكن الفصل بينهما. ثم إنّ أسلوب القصر والحصر شديد البلاغة، فـ (ليس لنا إلا الجزائر موطن)، هي كلّ الوطن، ولا وطن غيرها. وهو يقول فيها أيضاً:

سأقضي لها حقّ الأمومة، إنّها بلادي التي فيها محطّ ركابي

فهو يقرّ بحقّ الوطن عليه، حقاً لا يتصلّ منه، لأنّه حقّ الأمومة، و أعظمّ به من حقّ، خاصة على الابن البارّ الذي يعدها بقوله (سأقضي) وعداً صريحاً وواضحاً بالمستقبل القريب، ذلك أنّ الأمّ منطلق الحياة، والرباط الذي يصل المرء بأتمّه لا ينقطع، وحقّها أن تكون محطّ ركاب الابن، فقد يجوب العالم ولكنها أبداً، مرجعيته بعد كلّ سفر. وفي استعمال الشاعر للفظ (بلادي) إحياء بالاعتزاز والفخر، والعاطفة الجياشة تجاه الوطن.

ثمّ نجد محمد الهادي السنوسي يشير بطريقة ذكية إلى الاستعمار الذي ألقى أطنابه على الجزائر فأحال نعيمها جحيماً، ظلماً وقهراً وتقتيلاً، فيقول في ذلك:

هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي وإن كنت ظلماً، نازلاً ببيباب
عروس تجلّت في المحاسن حقبة إلى أن توارى حسنها بحجاب.

وفي قصيدة "الشهيد" (غنام، 2007، ص410) يقول:

ولدي، فقدتكَ، والحياة جميعها من فقدتُ
يا لييتني لما احتضنتك للوداع هناك، متّ

فالولد غالٍ، وفقد الولد لوعة يحسّ بها جميع الآباء، لذا كانت صرخته مؤلمة، عميقة
تواسي كلّ ملتاغ، وتخاطبه من قلب المصاب.

لم أنسَ وقفنا الرهيبية إذ أغالب ما كتمت
وجوانحي ناراً يراق على جوانبهنّ زيت
الواجبات ملحة، وحنان قلبي لا يبتّ
غالبت في سرّي قضاء الله، لكنني غلّبت

إلى قوله:

أعمارُ أبناء الجزائر في مشاهدنا تحتُ
مثلُ الهشيم شبابنا وشيوخنا، طفلٌ وبنّت

فالإحساس رهيب، والموقف صعب، ولكنّ الشاعر يخلّد كلّ شهيد بكلماته الرقيقة
القوية، الهادئة الصاخبة، الحنونة القاسية، ممّا يجعل المتلقي يدرك أنّ محمّد الهادي
السنوسي في نظمه الشعر، يصف الشعور، وينقل الإحساس، ويتوغّل في أغوار النفس
ليكشف خلجاتها، من عمق المعاناة.

ووطنية الشاعر واضحة، قوية، نلمسها في قصائد عديدة. ونجده أحياناً يصرّح بتوقه

إلى الحرية، رغم رقباء الكلمة، من مثل قوله (الهادي السنوسي، 1930، ص505) :

أفتش عن حمراء طفلاً عشقتها وفي البحث عنها ما سئمت، ولم آل

فالحمرء هي الحرية التي تراق الدماء من أجلها، والشاعر مصرّ على السعي إليها حتى ينالها.

وقد خبروني أنها ابنة ضيغم وأنّ بنيتها في المغرب، أشبال
فدون الحرية مخاطر وأهوال ، فلا بدّ أن يضاهي السباع قوّة من يروم مصارعتها.
وإنّ امرؤ لم يجعل الموت شطره إذا ما طالب عزاء، غالته أغوال
فالاستعداد للموت والتضحية هو سبيل الحرية. ولا يقصي الشاعر نفسه من هذا المأل:
وإني لأسعى ما استطعت لبغيتي وإن غالني فيما أحاول مغتال
وهو يعبر بتأكيد مكرّر (إنّ و لام التوكيد) على أنّه مستعدّ لدفع الثمن، ومتفان في هذا
السعي (ما استطعت) رغم كلّ ما يعترضه من عقبات.
ويلحّ محمد الهادي السنوسي على واجب الدفاع عن الوطن، في قصيدته " تحت ظلّ
مجد العلم" (غنام، 2007، ص124)، إذ يقول:

منّ علا الحقّ من؟ مثلنا في الزمن

خاض شتّى المحن في حياة الوطن

تحت ظلّ مجد العلم

كلنا للنضال أو لحسن الخصال

النسا والرجال في حياة الوطن

تحت ظلّ مجد العلم

قفّ ولبّ النداء يا ابن شعب الفدا

واطو جيش العدا في حياة الوطن

تحت ظلّ مجد العلم

ففي هذه الأبيات، يجمع الشاعر في لوحة فنية رائعة بين حياة الوطن، ووحدة الشعب، نساء ورجالا، صغارا وكبارا، لمواجهة العدو، وهي دعوة صريحة إلى النضال حتى تسترجع الحرية السليبية، ويرفرف العلم في سماء الجزائر.

5.5. خاتمة:

في آخر هذه الدراسة، يتبين لنا أنّ محمد الهادي السنوسي عاش مآسي البلاد، وعائش آلام الأمة، وشاركها آمالها، واتخذ من شعره سلاحا صوبه إلى قلب المحتلّ الغاشم، كاشفا ظلمه وخبثه وألعيه، وضمّن شعره صورا واضحة عن معطيات الواقع السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاصرها، مثيراً أهمّ القضايا التي حمل همّها ورام معالجتها بمعينة رواد الحركة الإصلاحية تحقيقا للإحياء الديني والنهضة الفكرية والاجتماعية.

وقد اعتمد منهج الهدم والبناء في دعوته الإصلاحية، هدم مظاهر البدع والخرافات وبناء أصول الدين الصحيح، هدم الآفات والردائل، وبناء الأخلاق والفضائل، هدم الجهل والأمية وبناء العلم والإحياء الفكري.

كتب اسمه مع أعلام الإصلاح على صفحات التاريخ من باب النضال بالفكر والقلم، في وقت عصيب، شهدت فيه الكلمة رقيبا يترصد صاحبها، ويتهدده بالعقاب بتهمة الوطنية. فيحق لمثله أن تحفظ ذكراه في قلوب وعقول أجيال الجزائر المتعاقبة، حتى لا يصيبه التهميش أو الإقصاء ويحق لاسمه أن يجلجل مع أسماء رواد الإصلاح في فضاءات المحاضرات والملتقيات والمدارس والمعاهد والجامعات، في مثل مناسبة يوم العلم، أو ذكرى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو في غير مناسبة.

قائمة المراجع:

- الإبراهيمي، البشير، (25 جنفي 1947)، البصائر، العدد 10.
ابن الحاج يحيى، أحمد (21-12-1937)، احتفال جمعية الحياة، جريدة الحياة، العدد 147.

- ابن باديس، عبد الحميد (2 أكتوبر 1936م)، خطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين، جريدة البصائر، العدد 38.
- ابن باديس، عبد الحميد (1937)، خطاب الرئيس الجليل الأستاذ عبد الحميد بن باديس في عرض حالة الجمعية الأدبية، جريدة البصائر، العدد 83.
- بوالصفصاف، عبد الكريم (2009)، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوّر الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، عام المعرفة، باب الزوار، الجزائر.
- أبو القاسم، سعد الله (1988)، أفكار جامعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- الهادي السنوسي، محمد، (1930)، الشهاب.
- الهادي السنوسي، محمد، (2007)، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، دار بهاء للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر.
- الهادي السنوسي، محمد، (25 جوان 1952)، من إلهام رمضان، جريدة اللواء، العدد الثالث (3).
- خرفي، صالح (1984م)، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- عمامرة، تركي رابح (2001)، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر (ط5) ANEP.
- غنام، عبد الحميد (2007م)، محمد الهادي السنوسي الزاهري، حياته وشعره، (ط1)، منشورات السائحي، الجزائر.
- ناصر، محمد، (1985م)، الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975م، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

<https://www.djazairess.com/elmassa/48453#>